ريجي دوبريه والحزب الثوري

بقلم طلعت همام

يخوض جيش الشعب الفيتنامي منذ سنوات،حربه الباسلة ضد الامبريالية الاميركية ، تحت قيادة حزب طليعي هو « حزب العمل الفيتنامي » .

كما ان كوبا قد خاضت حربها الثورية ضد الامبريالية ، ولكن بلا حزب ، فقد ظل الحزب كامنا بصورة جنينية في « التنظيم الثوري المسلح » الذي قاده فيديل كاسترو بنجاح في السييرا مايسترا ، ولم يلبث ان ظهر كحزب فور وصول الثوار الى السلطة ، والبدء في عملية التحويل الاشتراكي . فما هي حقيقة التجربة الكوبية ، وهل هو امر ضروري ان نخوض النضال ضد الامبريالية ، وان نبدأ في عملية التحويل الاشتراكي ، تحت قيادة حزب .. ؟ او بلفظ ادق : هل يعد توفر « الرؤية الحزبية » سمة لازمة لكل نضال ناجح ضد الامبريالية والتخلف .. ؟ كانت هذه المشكلة هي احدى المشاكل الهامة التي عالجها « ريجي دوبريه » في دراسته « ثورة في الثورة » . ولا شك ان دلالتها انما تمثل الكثير بالنسبة للعمل النضالي المسلح ضد الامبريالية في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، كما انها تمثل الكثير ايضا بالنسبة لتجارب البناء الاجتماعي في هذه القارات .

ـ ثورة في الثورة ـ

كان كتاب « ثورة في الثورة » خلاصة ناضجة لمجموعة مناقشات ومعايشات طويلة قام بها المؤلف مع القيادات الثورية في اميركا اللاتينية ، والكتاب بالاضافة الى دراستين اخريين لدوبريه عن « استراتيجية الثورة في اميركا اللاتينية » و « الكاستروية المسيرة العظمى لاميركا اللاتينية » يمثل مجموع الاعمال التي قام بها المؤلف الفرنسي ، استاذ الفلسفة المنتدب بجامعة هافانا، قبل ان تحكم عليه السلطات البوليفية بالسجن ثلاثين عاما ، بتهم ملفقة متعددة ، كالمشاركة في العمل المسلح ، والقيام بالدعوة والتنظير لحرب العصابات ، ونقل الرسائل من كاسترو الى جيفارا .

ورغم الحكم على دوبريه بالسجن الا ان قضيته الشخصية لم تكن ابدا محور اهتمامه ، بل ظلت الدلالة العملية للثورة التي قدم عنها دراساته الثلاث اهم لديه من اي غبن شخصي يتعرض له ، لذلك نراه يكتب ، «بدلا من ان تكون « قضية دوبريه » مرآة للضمائر الطيبة الخجولة ، او مورد رزق لتجار العواطف الاسبوعيين ، يجب استخدامها لتوعية الرأي العام قليلا حول مشاكل اميركا العامة ، مشاكل الكفاح المسلح ، والفاشية الاميركية الجديدة » .

ويكتب « فليتوقف الحديث عن دوبريه ، الذي ما زال حيا حتى الآن ومعرضا للاتهامات ، وهو جالس على كرسي الاتهام ، اكثر من عاهرة من سينسينا وليكن الحديث عن ثوار بوليفيا وغيرهم ، عن اولئك الذين ماتوا في القتال او الذين ما زالوا على قيد الحياة يقاتلون على ارض فظيعة الصعوبة ، فليرو تاريخ عمال المناجم ، عن تعرضهم لامراض الرئة والمذابح . ان وضع افكار فيدل و « شي » موضع التنفيذ في خلق اكثر من فيتنام ، لانقاذ الفيتنام او القضاء نهائيا على ضياع الفيتنام ، لا يحتاج الى رجال خارقين ، بل يحتاج من كل منا كثيرا من نكران الذات ، والكفر بكل شيء وربما بالحياة ، والصمود والعناد ، ومعدة تتحمل البقاء خاوية لعدة أسابيع ... عن هذا وعن هؤلاء يجب الكلام » .

وقد عرض دوبريه في دراساته الثلاث للعديد من القضايا الخاصة بالكفاح المسلح وقدم هذا الكفاح مرتبطا بالصراع ضد المفاهيم التمردية الخاطئة والمغامرات الفردية التي تتخذ سمة « الثورية » بينما لا تنتهي الا الى تشكيك الجماهير في القيم والمفاهيم الثورية الحقة .

وطرح بذكاء قضية رفض الثورة الكوبية لمنهج « الانقلابات العسكرية » كشكل من أشكال تغيير السلطة، وحدد الاسباب التي من أجلها يتحول الانقلاب المسلح الذي يطرح في البداية أشد الشعارات الثورية بريقا ليصبح مجرد حكم أوتوقراطي عاجز حتى عن فتح الطريق للعمل الديمقراطي بشكله البورجوازي .

وتوصل في محاولته لتنظير الثورة اللاتينية ، الى نظرية « البؤر » التي نمت وازدهرت من خلال الثورة الكوبية ، وما حاولته هذه البؤر التي نمت وازدهرت من خلال الثورة الكوبية ، وما حاولته هذه البؤر المنطلقة من رؤية طبقية من دمج للعمل العسكري بالعمل السياسي أو بالاصح تسييس حركة النضال العسكري المسلح .

كما ناقش أسباب فشل التطبيقات الميكانيكية لنظرية البؤر خارج نطاق التجربة الكوبية ، ورصد عملية تطعيم الامبريالية الدائب لاجهزتها بكل مصل ثوري جديد ، ومحاولتها اكتساب المناعة ضده .

وانتهى الى اعتبار العمل النضالي انطلاقا من رؤية ثورية ، معيارا لثورية كل تنظيم يطلب أن يكون « طليعة » للجماهير .

بالاضافة الى كشفه للاثار السلبية التي طبعها النزاع الايديولوجي العنيف بين الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ، على ثورات القارات الثلاث . والموقف

الثوري العلمي الذي اتخذه كل من الحزب الشيوعي الكوبي والحزب الشيوعي الفنزويلي في رفض كل انحياز لاحد الفريقين المتنازعين .

ـ صنع الثورة ـ

ان التناقض بين الكادحين وبين الامبريالية في أميركا اللاتينية ، كما في آسيا وافريقيا ، هو التناقض الاساسي وكل ما عداه ثانوي ، لذلك فان اعلان الحرب على الامبريالية ، ومباشرة هذه الحرب فور اعلانها ، سينقذ الثوار من مغبة الوقوع ابتداء من براثن المؤسسات الحزبية المحترفة .

ويستشهد دوبريه هنا بملاحظة لينين القائلة « حتى تعرفوا بم يفكر الاشتراكيون الديمقراطيون ، أنظروا الى أيديهم وليس الى أفواههم » . واذا ما كان هناك لقاء حقيقي بين الثوار الحقيقيين فان « هذا اللقاء هو ـ بكل بساطة ـ عقلاني ، وفي وضع تاريخي معين يمكن ان توجد ألف طريقة للتحدث عن الثورة ، ولكن هناك توافقا ضروريا بين كل أولئك الذين صمموا على صنعها » .

ودوبريه يرفض السعي لوظيفة « طليعة » قبل مواجهة الامبريالية بالافعال ، لا بالاقوال . لكن جعل العمل العسكري ، لا العمل السياسي ، نقطة البداية في الثورة ، لا يعني الفصل بين ما هو عسكري وما هو سياسي ، أو تفضيل الاول على الثاني ، لانه ابتداء من العمل العسكري الذي هو أصلا ذو جوهر سياسي يتم خلق وتدعيم الجهاز السياسي .

ويرسم دوبريه صورة لاذعة للمنظمات الثورية المحترفة « فالمنظمة الثورية الجديدة تظهر على المسرح وتطمح للحياة الشرعية ، ثم الى مشاركة فن الحياة السياسية الطبيعية لوقت معين ، لكي تتماسك وتبني اسمها ، وتهيىء بذلك شروط الكفاح المسلح ، ولكن ها هي شيئا فشيئا منهمكة ملتصقة بكل طارىء من طوارىء هذه الحياة السياسية العامة التي ستصبح الافق المعتاد لنشاطها ، انها تستقطب بعض الملاكات ، بعض المناضلين ، وتعقد مؤتمرها الاول ، وتصدر صحيفة بالرونوتيب ونشرات ، ثم تأتي المجالس السنوية المئة والاجتماعات الالف و « الاحتكاكات الدولية الاولى » وارسال المندوبين الى الخارج ، لانه من الواجب حضور عدة مؤتمرات والبقاء في حالة تمثيل دائم في عدة منظمات أخرى ، واقامة العلاقات العامة ، والميزان يبقى ايجابيا باستمرار ، العاملون يعملون ، والمطبعة تدور ، والمندوبون يسافرون ، والعلاقات الدولية تنمو ، والقادة يفرقون في العمل ، باختصار الالة تدور ، لقد أنفق على هذه الآلة كثيرا ، فيجب الاهتمام بها ، ان المنظمة تقوى » .

وتنتهي المنظمة بتحليل دوبريه الى تأجيل الكفاح المسلح لعدة أشهر أو لعدة سنوات أو الى الابد ، بينما تعمل على تجميد التناقضات القائمة والبقاء في حالة ود مع الطبقات التي أنشئت أصلا من أجل تصفيتها .

ـ المنظور الطبقي ـ

وعلى النقيض من هذا النضال الزائف للمعترضين ، يكون التقاء العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ، في اطار العمل المسلح ، تجسيدا ملموسا لعقيدة واحدة ، سرعان ما تبلورها اشتباكات السلاح ضد العدو الواحد .

وفي أتون هذا اللقاء يتم تكوين الحزب الطليعي ، الذي لن يكون في رأي دوبريه مختلفا عن الحزب المؤسس قبل بدء العمل العسكري أصلا ، لذلك فلا يجب أن نقلل من الوزن السياسي لزعماء العصابات المسلحة ، ولا أن نفترض ضرورة ازدواجية القيادة ، فنوزع المسؤولية بين السياسيين والعسكريين ، حتى لا يتوفر مناخ الانتهازية بين الفريق الاول ، بينما يسود التحجر بين الفريق الثاني .

ولا شك ان اختيار دوبريه لهذا الطريق ، الخاص ببلدان أميركا اللاتينية ، والبلدان التي تشابهها في الخصائص لهو اختيار منطقي ، فما دمنا لا نملك القدرة على اختيار « حزب طليعي » و « جيش طليعي » فعلينا بالنضال أن نوفر الظروف الملائمة لامتلاك هذه القدرة .

لذلك فان دوبريه ينتهي الى ان « العمل العصياني هو اليوم العمل السياسي رقم ١ » .

ـ اختلافات ـ

تختلف النتائج التي توصل اليها دوبريه عن نتائج الجنرال جياب ، الذي يشرح العلاقة بين التكوينات العسكرية وبين الحزب في كراسته عن « حرب الشعب وجيش الشعب » . فيقرر ان : « الحزب هو الذي انشأ جيش فيتنام الشعبي ولم يكف منذ انشائه عن تدعيمه وتثقيفه ، ولقد كان الجيش دائما وسيظل تحت « قيادة الحزب » التي استطاعت هي وحدها أن تجعل منه جيشا ثوريا ، جيشا شعبيا حقيقيا ، ومنذ انشاء الجيش وخلال تطوره ، تحددت قيادة الحزب في المجال التنظيمي ، وكان للجيش دائما مسؤولوه السياسيون ، وفي الوحدات يتحمل القادة العسكريون والسياسيون مسؤولياتهم تحت قيادة لجنة الحزب في المستوى التنظيمي المناسب » ومع هذا فان ماو في دراسته عن « استراتيجية الحرب الثورية » يؤكد ان « لقوانين الحرب في كل دولة أو أمة خصائصها المميزة ، ولا يمكن أن تنقل بصورة ميكانيكية ايضا » . مع ملاحظة ـ وهذا قول ماو ـ ضرورة الاستفادة من تجارب الاخرين .

وظروف العمل الثوري ، تختلف في أميركا اللاتينية عنها في اسيا ، فالعمل الحزبي في القارة الجنوبية لم يترسخ بقدر كاف ، لانه لا توجد حدود مشتركة مع دول صديقة قوية ، يمكن الاعتماد عليها أمدا يكفي لترسيخ القواعد الحزبية وجعلها نواة جيش ثوري ، فالامبريالية تواصل امتصاصها ، وبرامج الاستنزاف ومدارس

التدريب على مقاومة « العصيان » لا تزال تقوى وتندعم ، حتى لا تتكرر محنة كوبا ، بل ان الامبريالية تقوم بتدريس تعاليم غيفارا عن « حرب الانصار » مع شروح تفصيلية خاصة بكيفية مقاومة هذه التعاليم وابطال فاعليتها .

وهكذا فرض التحدي الامبريالي على الثوار اللاتينيين ، ضرورة البدء من الثورة المسلحة حتى وان كانت البنى الحزبية ، عاجزة ، هشة ، متصارعة ، أو حتى منعدمة .

لكن بلا شك ان بناء « الحزب الطليعي » كان هدفا مضمرا أثناء النضال المسلح ، كما ان هذا النضال قد أحرز ما أحرزه من نجاح بفضل الرؤية الطبقية الواضحة .

وهنا نتذكر ملاحظة ماو القائلة بأنه يجب « رسم هذين الخطين الفاصلين ، الخط الذي يفصل بين ما هو ثوري وما هو معاد للثورة ، والخط الذي يفصل بين النجاحات والنقائص » .

وانه « اذا عزمنا على شن هجوم قبل أن تعي الجماهير ضرورة الهجوم كان ذلك مغامرة » .

وبهذا تخلص الى ان « البنيان الحزبي » وما يوفره من رؤية ثورية واضحة ضد الامبريالية في الخارج .. والرجعية في الداخل ، أو بحد أدنى « الرؤية الطبقية » المشكلة لفكر حزب في طريقه الى التكوين والتصلب أثناء نيران المعارك ... هي الشروط التي لا غنى عنها من أجل خوض صراع منتصر ضد الامبريالية وعملائها .

القاهرة — **طلعت همام**

ماركسية القرن العشرين

تاليف
روجيه غارودي
ترجمة نزيه الحكيم

يقول روجيه غارودي ، مؤلف هذا الكتاب الخطير ، وهو احد ابرز فلاسفة الماركسية اليوم ، ما يلي :

« ان الجزائري ذا الثقافة الاسلامية يستطيع ان يصل الى الاشتراكية العلمية بدءا من منطلقات اخرى غير سبل هيغل أو ريكاردو أو سان سيمون . فلقد كانت له هو الاخر اشتراكيته الطوباوية ممثلة في حركة القرامطة ، وكان له ميراثه العقلي والجدلي ممثلا في ابن رشد ، وكان لديه مبشر بالمادية التاريخية في شخص ابن خلدون . وهو على هذا التراث يستطيع أن يقيم اشتراكيته العلمية » .

ويقول الاستاذ نزيه الحكيم مترجم الكتاب :

« ان هذا النص يأتي بالجواب الحاسم حلا للجدل اللفظي الذي احتدم طويلا بين مثقفينا التقدميين حول الاشتراكية التي تأخذ بها بعض أقطارنا ، وهل تكون « اشتراكية عربية » أم « طريقا عربيا الى الاشتراكية » . والحق ان المؤلف قد طرح بمثاله هذا **قضية القومية العربية وعنصر تراث القيم الانسانية فيها كانه اثر مسلم به من وجهة النظر الماركسية ...** وهذا يدل على استعداد لقبول اشتراكية « علمية » غير ماركسية ، وهو تطور يعتبر كسبا ضخما حقا ، ويمكن ان يكون كسبا عربيا ، لاننا اذا وعيناه ، ونحن في بداية مسعانا الجديد للخروج من القاع ، **فلن نجد انفسنا مكرهين على الاختيار الوحيد بين نار الاستغلال الراسمالي باسم حرية الفرد ، وبين صقيع الطغيان الفئوي باسم مصلحة الجماعة** . بل ستكون مسؤولية المثقفين العرب بالذات ـ في هذه المرحلة ، وتأسيسا محتوما على المنطلق القومي الوحدوي الذي لا بديل له من التجزئة ولا من الامية ـ ان يفتحوا ابواب الحاضر العربي ، الفاسد الهواء ، على الهواء النقي الذي يحمل بوادره عطاء الفكر العالمي غير المتزمت تحت شعار الحوار » .

ونعتقد ان هذا يكفي للاشارة الى اهمية كتاب « ماركسية القرن العشرين » الذي نقدمه اليوم ، والذي اثار ضجة كبيرة لدى صدوره منذ اشهر قليلة بين المفكرين الماركسيين وغير الماركسيين ، اذ يعتبر خطوة رائدة هامة على طريق الحوار المفتوح ، طريق تحرير البشر من « الايديولوجيات » الشمولية التي تزعم تفسير الانسان والطبيعة تفسيرا احاديا نهائيا يفرض غيبية جديدة باسم العلم .

وسيقرأ المثقف العربي في الكتاب فصولا تحليلية عميقة تتناول موقف الماركسية « الجديدة » من مبدأ المعتقدية ، والاخلاق ، والدين ، والفن . وسيجد المثقف العربي فيه ، بلا شك ، مادة غنية للدرس والتفكير .

الثمن ٤٥٠ ق.ل — **صدر حديثا**